فقه اللغة وعلم اللغة (إشكالية المصطلح)

عبد الله بوخلخال

جامعة الجزائر2

يتطرق المقال إلى بيان المدلول اللغوي لكل من فقه ولغة كلا على حدة، ثم يبين مدلول التركيبين: فقه اللغة وعلم اللغة اصطلاحا، كما يقف وقفة لا بأس بها عند التطور الدلالي الذي عرفته مفردة اللغة إلى أن صارت مرادفة للسان وذلك بعيد القرن 2هـ، وقد كان من معانيها أيضا المادة المستقراة زمان جُمّاع اللغة،ثم صارت تطلق ويراد بها تنوعا لغويا يقابله ما هو شائع و ذائع، ثم يعرِّج المقال على علم اللغة،الذي هو أحد علوم اللسان العربي، وهو العلم الذي حمل لواءه الخليل وأبوعمرو وتلاميذه، ثم أصحاب المعاجم فيما بعد ليفضي به الحال إلى ما صار معروفا في نهاية ق4هـ بفقه اللغة ، ثم يخلص المقال إلى الكشف عما وقع بين عديد الدارسين من خلط رهيب بين المصطلحات التالية :فقه

اللغة، علم اللغة، اللسانيات، الفيلولوجيا، إلى أن ينتهي إلى عالمين نظروا نظرة معمقة ، ألا وهما الحاج صالح وعبده الراجحي، فقضيا في مجمل أحكامهما بمايلي :

– أن علم اللغة هو حصيلة الجهود التي نهض بها من عُنوا بمتن اللغة.

– وأن فقه اللغة عند الغربيين هو الفيلولوجيا، أي دراسة الثقافة والحضارة من خلال النصوص الأدبية من وجهة نظر الألمان، وهو مساو لفقه اللغة المقارن، أو ما يعرف بالنحو المقارن من وجهة الإنجليز.

– وأن اللسانيات هو العلم الذي يُعنى باللسان البشري لا بلغة بعينها، وإطلاق علم اللغة عليه خطأ مبين.

The present study aims to explore the linguistic signification of understanding فقه and language, then the combination of the two terms: philology and science of langue. In addition, it shows the semantic development of the word language that becomes

synonym to langue after the second century. After that, it throws light on the science of langue which is one of Arabic linguistic disciplines that the two scholars Alkhalil and Abu Amer and their followers were concerned with. The study also clarifies the confusion of many researchers between: philology and linguistics and the science of

langue, showing that some of them do not make difference between these terms. In this respect, we introduce the readers to two scientists who looked into the issue deeply and came out with very interesting results, namely Elhadj Saleh and Abduh Erradjihi.

يعتبر علم اللغة من أجل علوم العربية قدرا، وأعلاها منزلة، وأقدرها على تجلية بعض من الحيرة الذي اكتنف بحرا أمدته كل قبيلة بسيل من السمات اللفظية غزير، فارتوى منه أئمة اللغة الأعلام ، الذين تحمّلوا في سبيل تبيان أسرار لغة القرآن عنتا كبيرا، ولحقهم من السهر والتعب في ارتحالهم المستمر ما لحقهم، فكان من ذلك أن دبّجوا كتبا تجاوزت حدود الجمع و الشرح إلى أعماق اللغة، وهذا البذل في دراسة اللغة لم يبرح يشق طريقه لأن يستزيد،غير أن عصرنا هذا وقع فيه ما لم يكن له مثيل من قبل، حيث صار العالم كما يقال قرية واحدة، فاختلطت العلوم وتمازجت وأضحى من الميسور أن تطّلع على ما عند الغربيين،من غير أن تطال بلادَهم قدماك، فعلت علومُهم علومَنا وهو الشيء الذي ولّد لنا إشكالية وضع المصطلحات وتحديد المفاهيم، إذ المتصفح لكتب المحدثين أول ما يصطدم به هو الخلط الرهيب في الدرس اللغوي بين فقه اللغة وعلم اللغة، أهما متلازمان لا يفترقان دلالة ومعنى؟ أم هما متفارقان ؟ وهل إذا تكلفنا

لهما تحديدا بنظرة غربية أغنانا ذاك عن الأوبة إلى ما قالته كتب الأقدمين من العرب ؟.

مفهوم مصطلح فقه اللغة:

تعريف كلمة فقه: الفقه في اللغة هو العلم بالشيء والفهم له، و الفطنة فيه[1].

يقال:فقُه يفقُه فقاهة فهو فقيه[2] إذا صار فقيها وفَقِه :أي فهم فقها، و بعض العلماء يرى أن الفقه أخص من العلم، قال الراغب الأصفهاني "الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم" وقد وردت مادة فقه في القرآن عشرين مرة تحمل المعاني السابقة، و من ذلك قوله تعالى:{ فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا } وقوله تعالى:{ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين} و قوله تعالى : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم }، وقد غلب استعمال الفقه على علوم الدين لشرفه[3] ، وذلك من باب تخصيص الدلالة ولكنه يستعمل في غير علوم الدين بقرينة[4].

أما في الاصطلاح فقد أصبح علما على فقه الشريعة وهو :(العلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية)،و سمي المشتغلون به بالفقهاء،

فإذا أطلق هذا المصطلح انصرف الذهن إلى هذا المعنى,إلا إذا قُيّد فإنه يدل على المعنى الذي قيد له، كقولنا:فقه اللغة أو فقه السيرة[5] ،وإنا وجدنا بعض الفقهاء المحدثين قد قيدوه في أحد مصنفاتهم، أعني: (فقه السنة) لسيد سابق.

تعريف كلمة لغة :

اللغة مشتقة من لغا يلغو إذا تكلم، فمعناها الكلام[6] ، وفي الحديث (من قال في الجمعة صه فقد لغا) أي تكلم[7] .

وجاء في لسان العرب لابن منظور في مادة لغو ما يلي "قال أبو سعيد:إذا أردت أن تنتفع بالأعراب فاستلغهم ،أي اسمع من لغاتهم من غير مسألة ...لغا فلان عن الصواب وعن الطريق إذا مال عنه، قاله ابن الأعرابي" قال :"واللغة أخذت من هذا (أي في اصطلاح اللغويين)لأن هؤلاء تكلموا بكلام مالوا فيه عن لغة هؤلاء الآخرين "[8]، ففيه زيادة عن النطق والأداء معنى النطق الخاص المتميز عن سائر الكلام[9]، واللغو الباطل، قال تعالى: {و إذا مروا باللغو مروا كراما}[10].

أما في الاصطلاح: اللغة هي عبارة المتكلم عن مقصوده[11] على حد قول ابن خلدون.

وعرفها ابن جني فقال:"هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[12]،لكن هذا التعريف الذي اصطنعه ابن جني ينسحب على اللسان بالمفهوم الذي ورد في القرآن الكريم وكان أيضا مستعملا في العصر الجاهلي، والذي يعنينا نحن في هذا الموضع بالذات أن نهتدي إلى دلالات هذه المفردة قبل حلول القرن الثالث الهجري، لأنها عرفت تطورا دلاليا أي قبل أن تصير مرادفة للسان، وقد كان هذا بعد زمان سيبويه كما أومأ إلى ذلك الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح[13]، لذلك يجدر بنا جميعا أن نحيط بجميع معانيها لنتفادى اللبس الذي وقع فيه بعض الدارسين قديما وحديثا.

هذا ولم نجد من أوضح هذا التطور الدلالي الذي مرت به لفظة لغة في حدود ما قرأناه كالأستاذ الحاج صالح حيث أوضح أن :"اللغة كانت تطلق عند النحاة واللغويين على عدة معان زيادة على ما يفهم من تحديد ابن جني لها، و هو اللسان بوجه عام ...هو أولا أن المفهوم العام الذي عرف للفظ اللغة ما عرف في الحقيقة إلا بعد نهاية القرن الثاني الهجري، وأن الأصل في الدلالة عليه هو ما استعمله القرآن الكريم والشعر الجاهلي وما نقل من كلام النحويين قبل وفاة سيبويه ، وكل ما ألف في ذلك العهد

في العربية و الفقه و الحديث ...فلا يوجد فيها إلا لفظ اللسان وكلما استعملت كلمت لغة فيها فهو:

– للدلالة على الكيفية الخاصة التي يمتاز بها قوم عن قوم في تأدية لفظ معين، إما في النطق أو صياغته أو تركيبه[14]، ومثاله ما ورد في الكتاب :"...ونظير هيهاتِ وهيهاتَ في اختلاف اللغتين قول العرب :استأصل الله عرقاتِهم واستأصل الله عرقاتَهم "[15] واللغة بهذا المعنى هي اللهجة في استعمال المتأخرين، بينما اللهجة في أصل الوضع فقد حددها صاحب اللسان باللسان، وزاد على ذلك أيضا أنها جرس الكلام[16]، أما الحاج صالح فعرف اللهجة بأنها نظام لغوي بأجمعه وخاصة اللسان الإقليمي الذي له خصوصيات لغوية تخالف اللهجات الأخرى، وكلها (اللهجات) تنتمي إلى لسان أقدم[17] .

ثم صار المتأخرون يجعلون اللهجة في مقابل اللغة بالمفهوم الذي تناولناه، وهم بذلك لا يقصدون اللهجة التي تنبثق عن لغة أمّ والتي تختلف عن نظيرتها من اللهجات اختلافا جوهريا، وإنما في حسهم التأدية اللهجية ليس إلا (وفي هذا الكثير من التسامح) [18].

– فبعدما كانت اللغة تدل على التنوعات الإقليمية في تأدية الكلام صارت تدل أيضا على مجموعة الألفاظ الموضوعة ، أي المادة المستقراة التي تلقاها الناس من أفواه اللغويين، أعني :الأصمعي،وأبا زيد، وأبا عبيدة، وأبا عمرو الشيباني،وغيرهم ممن كان يعتني بجمع اللغة، أي موضوعات اللسان.

– إلا أن عبارتهم اللغة العربية التي كانوا يقابلون بها اللغة الأعجمية، أدّتهم حتما إلى هذا الاشتراك الدلالي بين اللغة و اللسان الذي رأيناه عند ابن جني،لأنه أصبحت المسافة قريبة بين هذه العبارة وعبارة اللسان العربي، فعبَروا هذه المسافة بأن أشربوا لفظ اللغة مدلول اللسان،و حصل بذلك ترادف تام بهذا الاعتبار،وحافظوا مع ذلك على المدلول الأول للفظ اللغة[19]، وبهذا المعنى وظف الجاحظ كلمة اللغة في كتابه البيان مصرحا أن العربية وأن "العرب كلهم شيء واحد لأن الدار والجزيرة واحدة ...فهم في ذلك بذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة ..."[20] .

– اللغة في مقابل الاصطلاح: فالكلمات الاصطلاحية في اللغة معظمها لها معنى لغوي مبتذل عند عامة الناس، ثم يأخذ معناه الاصطلاحي في علم من العلوم، ... مثل الصوم، لغة: هو الإمساك عن الشيء مطلقا

،ومنه قوله تعالى :{فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم إنسيا }،أي إمساكا عن الكلام، أما في اصطلاح الفقهاء، فهو: الإمساك عن شهوتي البطن والفرج بنية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس[21] .

– لغة في مقابل الكلام المستعمل: أي كلمة فصيحة في مقابل ما هو أفصح منها، وقد كان ذلك زمان ابن السكيت، فقد أكثر في كتابه إصلاح المنطق من إيراد اللفظة الأكثر استعمالا لدى القبائل العربية، ثم يردفها بتأديةٍ أخرى للّفظة نفسها ويسميها لغة، وذلك مثل قوله : فَكاك الرقبة وهو الكلام المستعمل، وفِكاك الرقبة بكسر الفاء لغة[22].

باعتبار تركيبه:

فقه اللغة باعتبار تركيبه يعرف تعريفا لغويا وآخر اصطلاحيا.

لغة، هو فهم اللغة والعلم بها وإدراك كنهها[23].

وهو في الاصطلاح عند القدماء من علماء العرب لفظ أطلق على أحد فروع علم اللغة، (وموضوعه هو البحث عن الفوارق اللغوية التي تنتج عن التفريع الدلالي وتشعبات المعاني، أو بعبارة أخرى التمييز بين الوضع

والاستعمال فيما يرجع إلى المفردات، أي الوضع اللغوي الأول وما يتفرع عنه من استعمالات مختلفة :(الجماعية الإقليمية أو الفردية النادرة) [24].

أما ابن خلدون فقد تحدث عن فقه اللغة في الركن الثاني من أركان علوم اللسان العربي، ألا وهي علم اللغة، بما يوحي أن هذا العلم في حسه فرع وامتداد لعلم اللغة حيث قال:"ثم لما كانت العرب تضع الشيء لمعنى على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظا أخرى خاصة بها، فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال، واحتاج الناس إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ، كما وُضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب، ومن الإنسان بالأزهر، ومن

الغنم بالأملح، حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحنا وخروجا عن لسان العرب، واختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبي..."[25].

وهناك تعاريف أخر تحدثت عن الجدة التي لحقت فقه اللغة، أضربنا عنها صفحا، وبالارتداد إلى الكتب التي عالجت قضايا فقه اللغة، نلفي منها الخصائص لابن جني الذي ضن على كتابه باسم فقه اللغة قد ناقش فيه بفكره الثاقب ومنطقه السليم أبحاثا خطيرة في أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح؟ وفي مقاييس العربية و اطرادها وشذوذها و تصاقب ألفاظها

لتصاقب معانيها واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين والاشتقاق الأكبر وتركب اللغات واختلاف اللهجات"[26] ومن كتب هذا المضمار أيضا «الصاحبي في فقه اللغة»لابن فارس ت395هـ، إذ ذهب فيه إلى أن اللغة إلهام، كما ضمّنه بعض المباحث الهامة كخصائص هذه اللغة، و اشتقاقتها، وقياسها، و مترادفها، و مجازها، واشتراكها، ونحتها، واختلاف لغاتها ولهجاتها، أما الثعالبي ت429هـ في «فقه اللغة» لم يضمنه إلا مباحث قليلة نيطت بفقه اللغة، أما القسم الآخر من كتابه فهو منضو تحت ما يعرف بمعجم المعاني.

كما تعرض ابن سيده ت458هـ في«المخصص» لبعض البحوث المتعلقة بنشأة اللغة العربية، وبالترادف والتضاد والاشتراك والاشتقاق وتعريب الألفاظ الأعجمية[27].

والأمر لم يقتصر على الكتب المطولة، فقد ألفت مصنفات كثيرة في جزئيات هذا العلم قديما، مثل كتاب الاشتقاق لابن دريد، والأضداد لأبي حاتم السجستاني، والأضداد في اللغة لابن الأنباري، و شفاء الغليل فيما ورد في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين خفاجي، وما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه للأصمعي، وما وقع في القرآن من المعرب

للسيوطي...والمزهر في علوم اللغة وأنواعها له أيضا، ويشتمل هذا الكتاب على الكثير من أبواب فقه اللغة مثل مباحث الترادف والاشتراك والتوليد والتعريب وغيرها[28] . وبعد هذا العرض الذي أبان لنا عن ماهية فقه اللغة والمواضيع التي هي من صميم اهتماماته، يمكن لنا القول بأن فقه اللغة هو تتويج لذلك الجهد الذي بذله علماء اللغة، فبعدما أعنتوا أنفسهم في جمع المادة اللغوية وشرحها بالرحلة إلى منتجعات البادية للسماع من أهلها،وبعدما داخل اللسانَ الحضري الفسادُ، وقد كانت طرائق جمعهم وسماعهم علمية، نهضوا فيها بمسح كامل لجميع أقطار شبه الجزيرة العربية، وفي مدة فاقت القرن، ملتمسين ثبوت اللفظة وتنوع صيغها ومصادر ثبوتها ومدى شيوعها وتعدد دلالاتها، فكانت رسائل الموضوعات أولا، ثم المعاجم الضخمة التي حاولت أن تحصي أكبر عدد ممكن من الكلمات العربية، وترتيبها على نمط معين وشرح كلماتها مستشهدين على ذلك بما غصت به المدونة المستقراة،على غرار صنيع الخليل في كتابه العين، وكل من انبرى لهذا الأمر، عُدّ من علماء اللغة .

فعلم اللغة في تحديد ابن خلدون له هو: "بيان الموضوعات اللغوية "[29]، وهو عند الرضي الإسترابادي "علم الألفاظ اللغوية السماعية "[30] .

وبعد هذا كله ولاسيما قُبيل إقفال أبواب السماع بفساد الألسنة في جميع أنحاء البيئة العربية، وبعد ما وقف هؤلاء الجُمَّاع للمادة اللغوية أنفسهم مشدوهين أمام أسرار هذه اللغة والخصائص التي ازدانت بها واختصت عن سائر اللغات بها، وبعدما تبدَّد الخوف من ذهاب اللغة بموت أصحابها، وتكشّف لهم ما غمض من دلالاتها، وما التبس عليهم من تنوعاتها، اغتدت الحاجة ماسة إلى استكناه أسرارها وبيان خصائصها، فأخذوا في التعمق في ذلك إلى غير غاية. وما يقضي بصحة ما نرمي إليه، أن ابن فارس وهو من فقهاء اللغة العظام قد خلف لنا معجمين هامَّين، ألا وهما المجمل والمقاييس، بالإضافة إلى ابن جني الذي به ختم السماع ت392هـ، فقد خلد في فقه اللغة وأصولها كتابا أسماه: «الخصائص».

ومن خلال ما أوردناه نخلص إلى أن فقه اللغة هو علم يتوسع في دراسة مظاهر وخصائص العربية في مستوياتها المختلفة، فيحدثنا عن الإعراب الذي هو لب الدرس النحوي، لكنه لا يتعرض لجزئياته وتفاصيله وأبوابه، وإنما يتحدث عنه كظاهرة وميزة امتازت بها اللغة العربية، كأن يجيب عن مسألة ذات بال ألا وهي، علام أعربت العرب كلامها؟ كما تناولت بالدرس بعض ماله علاقة بالدرس الصرفي، نحو الاشتقاق، لكنه

لا يتتبعه نوعا نوعا، وكلمة كلمة، أعني الاشتقاقات السبعة والتصاريف الثلاثة، وإنما عن وجوده في العربية وارتداد التصاريف الناجمة عن المادة الواحدة إلى معنى جامع يربط بينها، وعن دوره في العملية التوليدية، وكذا دلالة بعض الأوزان الصرفية على المعاني، كما يُعنى فقه اللغة كذلك بدلالة الأصوات على المعاني، لاسيما بين اللفظين المتشابهين لفظا ومعنى، أما عن تعرضها لما هو من قبيل الدرس المعجمي فحدث عن البحر ولا حرج فكيف؟ وهي إحدى فروع علم اللغة، لكنها لا تشرح الكلمة لذاتها، وإنما فيما هو راجع إلى مقابلتها بنظائرها، إما ترادفا أو تضادا أو اشتراكا، كما تتقاطع وعلم البلاغة في فن البيان من بعض الوجوه، ذلك أن بعض المعاني تُكسى بألفاظ تتواءم معها، ثم تأتي معان أخرى فتأخذ ذات اللفظ لالتقائهم في معنى مشترك جامع بينهم، أي أن المعنى الثاني يستعير من الأول لفظه لقاء المشابهة التي بينهما[31].

الخلاف الدائر بين المحدثين في تحديد فقه اللغة وعلم اللغة:

لقد وقع خلط كبير ولبس جسيم بين عديد الدارسين، فتجد من يجعل فقه اللغة وعلم اللغة سيّان، وإن منهم لمن يجعل فقه اللغة شيئا مختلفا عن علم اللغة، وفيهم من يجعل علم اللغة مرادفا للسانيات، فإما أن يوردها كما

هي (علم اللغة)، وفي أحسن أطواره يلحق بها كلمة عام، أي علم اللغة العام، كما نلفي خلطا بين فقه اللغة و الفيلولوجيا واللسانيات المقارنة، لذلك سنحاول هاهنا أن نستعرض أراء الدارسين وتصوراتهم حول هذه المصطلحات، فنبدأ أولا بمن جعلهما سواء، ثم نثني بمن فرق بينهما .

أ) من عدل بينهما من الدارسين:

يقول الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد : " فبعض المؤلفين المحدثين يفرق بين المصطلحين، وبعضهم يجعلهما شيئا واحدا باعتبار أن العلم والفقه شيء واحد، ... فإذا استخدم مصطلح « فقه اللغة» باعتباره شاملا لدراسة اللغة بعامة، فهو الأنسب لأنه مستخدم في عربيتنا وارد في تراثنا، وإذا استخدم اصطلاح «علم اللغة»، فإنما يعنى به المرادف لفقه اللغة، بناء على المعنى اللغوي، ولا مشاحة في الاصطلاح"[32] .

من خلال هذا التصور الذي أورده محمد بن إبراهيم الحمد، يتبين لنا أنه فاته أن اصطلاح علم اللغة قد ورد كذلك في تراثنا، وقد عرضنا سالفا كلاما لابن خلدون يتناول فيه «علم اللغة»، والشيخ في كلامه السابق يستبعد علم اللسان استبعادا عند إيراده اصطلاح علم اللغة، على خلاف بعض المحدثين الذين يعبرون عن اللسانيات بعلم اللغة، وفيما يأتي من

الكلام سنعرض لهم بمشيئة الله تعالى، والآية على صحة ما نأتيه أن الشيخ عند حديثه عن الخلط بين المصطلحين (فقه اللغة وعلم اللغة) قال:"لقد حصل خلط بين المصطلحين السابقين بسبب ترجمة بعض المصطلحات الغربية ومحاولة تطبيقها على لغتنا "[33] .

ومن الذين سلكوا هذا المنحى المتمثل في النأي عن التفريق بينهما صبحي صالح، بدعوى أنه"من العسير التفريق بينهما،لأن جل مباحثهما متداخلة لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب قديما وحديثا، وقد سمح هذا التداخل أحيانا بإطلاق كل من التسميتين على الأخرى، حتى غدا العلماء يسردون البحوث اللغوية التي تسلك عادة في علم اللغة، ثم يقولون : وفقه اللغة يشمل معظم البحوث السابقة ولا سيما إذا قارنت هذه البحوث بين لغتين أو لغات متعددة "[34] و يضيف فيقول:" وإذا التمسنا التفرقة بين هذين الضربين من ضروب الدراسة اللغوية من خلال التسميتين المختلفتين اللتين تطلقان عليهما، وجدناها تافهة لا وزن لها ،فاسم علم اللغة عند الفرنجة Linguistique ou science du langage

، وهي كلمة Philologie أي العلم المختص بالكلام، أو اللغة، واسم فقه اللغة عندهم Logos بمعنى صديق، و الثاني Philolos مركبة من

لفظين إغريقيين أحدهما الثاني بمعنى الخطبة، أو الكلام، فكأن واضع التسمية لاحظ أن فقه اللغة يقوم على حب الكلام للتعمق في دراسته ..."[35]

إذن صبحي صالح يرى أن صعوبة تحديد الفرق بين المصطلحين يرتد إلى التداخل الذي بينهما (فقه اللغة وعلم اللغة)،في الشرق و الغرب،و قوله في الشرق،يقصد به عند العرب، ونحن قد بينا أن الأوائل قد فرقوا بينهما، إذ يعتبر فقه اللغة امتدادا وفرعا عن علم اللغة وهو متأخر عنه،وأما قوله في الغرب، فإن كان يقصد أن ذلك قد كان قبل زمان دي سوسير فلكلامه قدر كبير من الصحة، وهذا ما بينه عبده الراجحي بقوله :" كان لأعمال بوب وراسك وجريم تأثير كبير على من خلفهم من باحثي اللغة، في ألمانيا وفي الأقطار الأوربية الأخرى، وقد مهدت لتطوير الدرس اللغوي حيث بدأ التمييز بين فقه اللغة وعلم اللغة"[36]، وأما إن كان يرمي بما قال إلى اللسانيات، وقد أومأ إلى ذلك بتوظيفه مصطلح فهو مجانب للحقيقة، وسنكشف ذلك بعد حين . Linguistique

ومن الذين سوَّوا بينهما من الدارسين العرب المحدثين؛ الدكتور علي عبد الواحد وافي بحيث لم يفرق بينهما تفريقا واضحا، حتى إنهما يكادان

أن يكونا شيئا واحدا، غير أن فقه اللغة عنده مختص بالبحوث المتصلة بعلم اللغة وحده . ولعلي عبد الواحد وافي كتاب تحت اسم «علم اللغة » لكن علم اللغة عنده يدل على مفهوم اللسانيات العام .

وممن ذهب هذا المذهب الدكتور السيد يعقوب بكر حيث قال في مقدمة كتابه «نصوص في فقه اللغة العربية »:" فقه اللغة،هوعلم اللغة »،فاعتبر فقه اللغة ترجمة لمصطلح الفيلولوجيا هذا من جهة ، ومن جهة ثانية اعتبره مرادفا لمصطلح علم اللغة"[37] .

ب- من فرق بينهما من الدارسين:

من عجب أن الأستاذ بلعيد صالح لما جاء ليتحدث عن مواضيع فقه اللغة، ذكر جل المباحث التي عرضنا لها سالفا، لكنه عرّف فقه اللغة على النحو الآتي : " هو الذي يُعنى بدراسة النصوص بغية إقرار الصحيح منها على وجه الخصوص، ويشمل فقه اللغة على الدراسة المقارنة بين مختلف اللغات (فقه اللغة المقارن) وشاع استعمال لفظة علم اللغات الذي يُعنى بدراسة اللغات على أسس علمية حديثة حيث يختلف في منهجه عن فقه اللغة"[38]، صحيح أنه نبِه إلى الفرق الذي بين فقه اللغة وعلم اللغة،

لكنه منسحب على الدرس اللغوي الغربي فهو، إذن يفرق بين الدراسات اللغوية التاريخية المقارنة وبين اللسانيات .

ومن خلال تصفحنا كتاب فقه اللغة للراجحي، تكشّف لنا أنه ينظر إلى الموضوع بنظر واع، ذلك أنه استهل كتابه بالحديث عن فقه اللغة وعلم اللغة كما ينظر إليهما الغربيون، ثم عرَّج على فقه اللغة وعلم اللغة عند العرب فأجاد وأصاب، وقد كان كلامه في ذلك مطابقا لما أوردناه قبلا ,ولا بأس أن نورد ما ذكره عن هذين العِلْمَين حسب الرؤية الغربية لهما .

ينقل لنا عن روبنز في حديث له عن فقه اللغة ما يلي:" إن مصطلح فقه اللغة يستعمل استعمالا مختلفا عند كل من البريطانيين و الألمان، ففي استعمال البريطانيين يتساوى الاصطلاح مع فقه اللغة المقارن الذي هو أقدم وما يزال معروفا يساعد عند اللغويين ما يسمونه علم اللغة التاريخي والمقارن، وهو يعني عند الألمان، الدراسة العلمية للنصوص الأدبية القديمة، ويعني أكثر من ذلك دراسة الثقافة والحضارة من خلال النصوص الأدبية"[39] . ذا وقد بين عبده الراجحي أن علوم اللغة عند الغربيين قد كانت قبلا غير متمايزة عندهم،" ثم ومنذ القرن التاسع عشر بدأ علم اللغة يأخذ حدوده الواضحة، وهنا تبرز أسماء ثلاثة من اللغويين الكبار، هم

سوسير و بلومفيلد وسابير...،ومن محاضرات سوسير يتضح أن علم اللغة لا يدرس لغة معينة، و إنما يشمل كل ظواهر الكلام الإنساني، سواء كان أصحابه متحضرين أم بدائيين، وسواء كان ذلك في فترات قديمة أم حديثة، كما ميّز «علم اللغة » عن « فقه اللغة »، حينما أكد أن علم اللغة يدرس اللغة من أجل ذاتها، أي أنه لا يدرسها باعتبارها وسيلة لغاية أخرى كدراسة الثقافة أو الأدب في «فقه اللغة »"[40]، والمقصود بعلم اللغة عند الراجحي هو علم اللسان العام .

ومن الذين أجادوا وأفادوا ونظروا بنظرهم الثاقب كما هي عادتهم دواما الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح فقد عرض المسألة عرضا ضافيا وافيا، نجتزئ منها بالمُورَد الآتي:" أما فقه اللغة الذي بدأ يستعمله العلماء في ق5ه فهو لا يدل أبدا عندهم على ما يدل عليه علم اللسان الحديث (وإن كان آثرَه بعض إخواننا فأطلقه عليه)...فإن العلماء العرب في القديم ما أرادوا بهذا إلا ما هو متعلق بالدراسة المتعمقة للغة فقط، لا للسان كله، وموضوعه هو البحث عن الفوارق اللغوية الناتجة عن التعارض بين الوضع و الاستعمال وما يترتب على ذلك من التفريع الدلالي و تشعبات المعاني... "[41]

وفي ذات السياق لكن في موضع آخر يقول :" عند غيرنا(فقه اللغة) من معاصرينا هو ترجمة لمفهومين متقاربين :

أ- مفهوم الفيلولوجيا عند قدماء الغربيين (اليونانيين وكل من تأثر بأدبهم من الأوربيين) وهو الدراسة اللغوية للنصوص القديمة لإدراك فحواها و مغزاها، وكانت هذه الدراسة من جملة الوسائل (خصوصا في القرون الأخيرة) التي يستعين بها العلماء الأوربيون، غير اللغويين، كالمؤرخ ورجل القانون وناقد الآثار الأدبية، ...وعلى هذا لم يكن هذا الفن مستقلا بذاته، أما الغرض منه أن يخدم غيره من العلوم الإنسانية.

ب- مفهوم الدراسة اللغوية التاريخية، أو علم اللسان المقارن، أو النحو المقارن والمقصود منه شيئان: إثبات المراحل التطورية التي تمر عليها اللغة، و إ ثبات القرابة بين اللغات باستعمال مناهج المقارنة التاريخية"[42] .

وجامع ذلك أن الفيلولوجيا الأوربية من وجهة نظر الحاج صالح، قد تعاورت عليها طريقتان، "طريقة تقتصر على النصوص القديمة ولا تتعداها ثم جددت في القرن التاسع عشر فأدخلت فيها طرق النحو المقارن، ثم

غلبت عليها النزعة التاريخية فصار اللغويون في ذلك العهد في غير هذه المناهج التطورية منهجا علميا على الإطلاق "[43].

والذي عرضنا له يمثل بحق تصور الحاج صالح لهذه المفاهيم، فلا يُعكِّر علينا بعد هذا ما زعمه عبد المالك مرتاض – وهو عندنا صادق مصدق – من لقياه بالحاج صالح في وهران، فدار بينهما كلام مفاده أن اللسانيات عند الحاج صالح تعني فقه اللغة المتمحض لدراسة لغة واحدة بعينها، إذ كان علم اللغة العام يطلق عليه حسب الأستاذ الحاج صالح لسانيات عامة، ثم يضيف إلى ذلك فيقول:"ونحن عدنا إلى الكتب

المتخصصة وإلى الموسوعات الفرنسية الصادرة منذ شهور (اللقاء تم عام 2004م) فألفيناها تجمع على أن اللسانيات هي علم اللغات لا علم لغة واحدة"[44].لا يسعنا بعد هذا الإيراد إلا أن نقول: ليس لنا علم بما جرى بينهما من حديث إلا ما ورد، ولعل مأتى ذلك من سوء فهم أحدهما للآخر، ولكن الكتابات السابقة للحاج صالح قاضية بخلاف ذاك ، ذلك أنا إذا أبنا إلى كتابه الموسوم :«بحوث ودراسات في علوم اللسان» وجدناه يقول:"... وهو(الفارابي) ينطلق دائما من هذه التسمية « علم اللسان » للدلالة على الموضوعات العامة والدلالات الخاصة، وكذلك العلماء الذين

سبقوه، وإذا أرادوا التخصيص وصفوا هذا اللفظ أو أضافوه إلى اسم الأمة المعينة، ومنه قول الفارابي :«وأهل العلم بذلك اللسان» وكذا قول الشافعي :«عند أهل العلم بلسان العرب»"[45]، بل هو يقصر فقه اللغة على الدراسة المتعمقة للغة فقط، لا للسان كله .

خاتمة

بعد هذا العرض الذي حاولنا من خلاله تحديد المصطلحات، وبيان المفاهيم التي وقع فيها غلط جسيم بعث على الحيرة والقلق، انتهينا إلى طائفة من الأحكام التي يُتوخى منها إزالة كل لبس وتبديد كل قلق:

– حري بكل دارس أن يحيط علما بجميع هذه المفاهيم، وأن يمنحها ما يليق بها من المصطلحات حتى لا نقع في الغلط الذي وسمت به بعض دراسات العرب المحدثين، و لا يتأتى ذلك إلا بدراسة معمقة لما كتبه الأقدمون و المحدثون.

– علم اللغة هو حصيلة لتلك الجهود التي نهض بها عمالقة اللغة في جمع المادة اللغوية وشرحها، وبطرائق علمية تقوم على السماع والمسح الكامل للأقطار العربية .

– فقه اللغة هو فرع وامتداد لعلم اللغة، وكان الباعث له بعد اطمئنانهم على لغتهم بتجميعها،هو التفريق بين الوضع والاستعمال، و الرغبة الجامحة في استكناه أعماق اللغة.

– علم اللغة عندنا هو أحد أركان علم اللسان العربي.

– فقه اللغة عند الغربيين هو الفيلولوجيا، أي دراسة اللغة اللاتينية والإغريقية ليس غير، أما عدُّ اللسانيات المقارنة من هذا القبيل فغير وجيه، ذلك أن اللسانيات المقارنة هي دراسة علمية بحتة لا غاية من ورائها سوى دراسة اللغة، بينما الفيلولوجيا يستعين بها المثقف لغاية أخرى، أي أنها قامت بغية إسداء خدمة لسوائها من العلوم الإنسانية.

– علم اللغة عندهم كانت الحدود في أول عهده والفواصل بينه وبين فقه اللغة تكاد أن تكون متلاشية، ثم اتضحت معالمُه بنزوعه إلى المسلك العلمي القائم على الوصف، المهتم باللسان البشري لا بلغة واحدة، ونحن نرتضي له اصطناع مصطلح اللسانيات بدلا من علم اللغة، بيد أنه موجود في تراثنا العربي وبمفهوم مغاير، ثم إن النظرة الشمولية للسانيات وتحت مصطلح علم اللسان، هي من اصطناع الفارابي قبل أن يكون لها وجود في الدرس الغربي.

هوامش المقال :

1- محمد الحمد، فقه اللغة، دار ابن خزيمة، ط1، الرياض، ص17

2- نفسه.

3- المرجع نفسه، ص17-18

4- نفسه .

5- محمد الحباس، محاضرات في فقه اللغة، دار غبريني، 2006، ص11

6- محمد الحمد، فقه اللغة، ص18

7- محمد الحباس، محاضرات في فقه اللغة، ص12

8- عبد الرحمان الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي ، موفم للنشر، الجزائر،2007، ص156

9- نفسه.

10- محاضرات في فقه اللغة ، ص12

11- ابن خلدون، المقدمة، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص624

12- محاضرات في فقه اللغة، ص13

13- ينظر: السماع اللغوي العلمي،ص161،بحوث ودراسات في علوم اللسان،موفم للنشر، الجزائر،2007، ص81-82

14- الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص82

15- السماع اللغوي العلمي عند العرب، ص153

16- المرجع نفسه، ص156

17- نفسه.

18- نفسه.

19- الحاج صالح ، بحوث ودراسات، ص82

20- السماع اللغوي، ص190

21- محمد الحباس، محاضرات في فقه اللغة ، ص15

22- ينظر: السماع اللغوي العلمي عند العرب، ص43-44

23- محمد الحمد، فقه اللغة ، ص19

24- محمد الحباس، محاضرات في فقه اللغة، ص16

25- ابن خلدون، المقدمة، ص628

26- صبحي صالح،دراسات في فقه اللغة،ص22

27- المصدر نفسه، ص22-23 (بتصرف)

28- محمد الحباس ،محاضرات في فقه اللغة، ص19

29- ابن خلدون، المقدمة، ص626

30- محمد الحباس ، محاضرات في فقه اللغة، ص21

31- الصّريم يطلق على الليل و النهار معا،وأصل هذا اللفظ أنه من القطع، ذلك أن الليل ينصرم من النهار، وكذلك النهار ينصرم من الليال،وهما من الأضداد،لكن في

أصل الوضع خصت إحداهما بهذا اللفظ ،ثم استعارته الثانية نظرا لالتقائهما في معنى مشترك، يعد أصلا للفظة «الصّريم».

32- محمد الحمد، فقه اللغة، ص20

33- المرجع نفسه، ص21

34- صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، ص19

35- نفسه.

36- عبده الراجحي، فقه اللغة، دار النهضة؛ بيروت، ص18

37 – المرجغع نفسه، ص9

38- السيد يعقوب بكر، نصوص في فقه اللغة العربية،ج1، دار النهضة العربية، بيروت ،1970 ، ص11

39- بلعيد صالح، فقه اللغة العربية ، دار هومه،الجزائر، ص10

40- عبده الراجحي ، فقه اللغة، ص19

41- نفسه.

42- محمد الحباس، محاضرات في فقه اللغة، ص21

43- الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص17

44- عبد المالك مرتاض، نظرية النص الأدبي ،دار هومة، الجزائر،2007، ص152

45- الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص87